دور اللغة المسرحية في الدفاع عن التراث الجزائري

The Role of Theatrical Language in Defending the Algerian Heritage

د. علوش عبد الرحمن

جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، الجزائر، allouch.abderrahman@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/26 تاريخ القبول: 2021/11/04 تاريخ النشر: 2021/12/16

ملخص: تعد اللغة احدى أهم المواد التي اعتمد عليها المسرحيون الجزائريون، في تحصين الذات والحفاظ على الهوية الوطنية من الطمس والتغريب، فالهدف من الدراسة هو الكشف عن دور اللغة المسرحية في نشر التراث بكل أشكاله من حكايات شعبية وأساطير وغيرها، وتوظيفها بشكلها الفصيح والعامي في المحافظة على الهوية الوطنية من الاندثار والنسيان كما جاء توظيف الحكايات الشعبية والخرافية في أعمالهم من مآثر وبطولات الشعب الجزائري، لتداولها بين أفراد المجتمع كمادة حيوية من التراث الشعبي، تحافظ على خصوصيات أفراد المجتمع وتساهم في تحصين الذات من الاغتراب.

كلمات مفتاحية: التراث، الهوية الوطنية، الخرافة، اللغة، المسرح.

Abstract: Language is one of the most important materials on which Algerian playwrights relied, in fortifying the self and preserving the national identity from obliteration and alienation. On the national identity from disappearance and oblivion, as came the employment of folk and fairy tales in their works with the exploits and heroisms of the Algerian people, to be circulated among members of society as a vital material of folklore, preserving the privacy of members of society and contributing to the immunization of self from alienation.

Keywords: Heritage; National Identity; Surstition; The language; The theater.

1. مقدمة:

إن الوضع السياسي في الجزائر، وسياسة فرنسا المنتهجة في طمس الهوية الوطنية للشعب الجزائري أدى إلى توظيف التراث الشعبي بكل أشكاله في المسرح الجزائري ،من عادات وتقاليد، وحكايات وثقافة عربية و إسلامية، وحتى اللغة العامية بلهجاتها المتنوعة من كل ربوع الوطن، لأن اللغة العربية الفصحى لم يكن كل الجزائريين يفهمونها ،لما تعرض له المجتمع الجزائري من محاولات عديدة لطمس هويته، عن طريق تعليم اللغة الفرنسية فقط وعدم السماح له بتعلم اللغة العربية ، وهنا نتساءل كيف وظف التراث دفاعا عن الهوية الوطنية في المسرح الجزائري؟ وما التراث الموظف؟ وما اللغة التي وظف بها؟ لكي يرى العالم صمود الشعب الجزائري والحفاظ على هويته الوطنية.

2. توظيف التراث اللغوي والمعنوي في النص المسرحي الجزائري:

1.2 التراث:

تشبع المسرح الجزائري من التراث بكم هائل من القصص والحكايات الشعبية التي أنزلها الرواد في مسرحياتهم، حيث اعتمدوا على التراث في أعمالهم، موظفين اللغة العربية واللهجة الجزائرية وفق الظروف السائدة في تلك الفترة، وتماشيا مع وعي الفرد، في ذلك الوقت، وانطلاق المسرح التراثي على يد كل من علالو و رشيد القسنطيني و محي الدين باش طارزي وولد عبد الرحمن كاكي وغيرهم، ممن أناروا المسرح في تلك الفترة معتمدين على مادة التراث، والتي هي غنية بمادة خصبة قابلة للتمسرح و التي لاقت إقبالا كبيرا من قبل الشعب الجزائري الذي كان متمسكا بتراثه في تلك الفترة.1

يقول السيد حافظ الأسود "فالتراث يقصد به تلك العناصر الثقافية التي تتوارثها الأجيال عن بعضها البعض في مختلف الطبقات الاجتماعية". 2

لذلك يعتبر التراث ذاكرة الشعب وكيانه ووجدانه إذ أن هذه الذاكرة الجماعية تحمل في طياتها مقومات الأمة وهذا ما ينطبق على الجزائر، وشأنها شأن الدول العربية الأخرى بما فيها من عادات وتقاليد يتميز بها الشعب الجزائري والدين الإسلامي الذي هو دينها الرسمي ومختلف المآثر والملاحم والبطولات التي شهدتها منذ نشأتها حتى يومنا هذا كل هذه الأمور هي عبارة عن موروثات شعبية تعكس هوية هذا الوطن كمجتمع جزائري عربي وإسلامي له خصوصياته ومقوماته التي تميزه عن الأوطان الأخرى لذلك كان لابد من إقرانها بالفن المسرحي وعرضها على الجمهور كي يتم مخاطبته من وجدانه وذاكرته وهذا ما قام به كتاب المسرح الجزائري عندما حاولوا التأصيل انطلاقا من عودتهم إلى التراث الشعبي وفي هذا الصدد يقول الدكتور صالح مباركية "العودة إلى التراث الشعبي تعني بالدرجة الأولى « التأصيل » وتحقيق الذات والهوية وإحياء تراث الأجداد والآباء والافتخار بمآثرهم ومجدهم الخليد ".3

فالتراث هو حصيلة كل ماضي بعيد ورثناه عن أجدادنا عبر التواتر، فهو إرث عالمي وصلنا بكل أشكاله.

2.2 ارتباط المسرح بالتراث:

ارتبط توظيف التراث في المسرح الجزائري باسم مسرحي حاول أن يبرز الهوية الوطنية والذات والقومية الجزائرية بمختلف مواصفاتها وخصائصها بفضل أعماله المسرحية

الخالدة هو ولد عبد الرحمان كاكي الذي دعا دوما إلى إبراز هوية الأمة الجزائرية والحفاظ عليها عن طريق توظيف الموروثات الثقافية والفنية والفولكلورية بصفة عامة وإقحامها في الأعمال المسرحية وهكذا كان الاهتمام بالتراث الشعبي أساسا لقيام فن مسرحي أصيل ومعبر يعتمد على الخرافات والأغاني الشعبية والأساطير والأمثال الشعبية المعروفة في العادات والتقاليد التي يتميز بها المجتمع الجزائري فكان المسرح الجزائري الممزوج بهذه الموروثات الشعبية الجزائرية هو بلا شك التاريخ المجيد للأمة إذ يبرز من خلاله الهوية الوطنية للجزائر وماضيها وتاريخها الحضاري وفي هذا السياق تندرج أعمال كاكي التي كانت زاخرة بالأساطير والأغاني الشعبية والأمثال والحكم والأشعار وغيرها.4

إن من يقرأ مسرحياته أو يشاهدها على خشبة المسرح يعيش حنينا إلى تلك العادات والتقاليد وذلك التراث الذي غُيِّبَ عن ساحة المشهد المسرحي المعاصر، ونشهد أن ذلك كان أمرا محتوما بفعل عولمة الثقافة لدى الشعوب.

3. توظيف اللغة العربية واللهجات المحلية في المسرح الجزائري :

1.3 اللغة المسرحية وأهميتها في إبراز الهوية:

ارتبطت اللغة بهوية الشعوب منذ أقدم العصور كونها بقيت على تعريفها الشكلي المألوف على أنها أداة للتواصل بين أفراد المجتمع، كما أنها من المقومات الأساسية التي تبرز خصائص شعب من الشعوب.

إذا فاللغة هي ما تبين هوية المجتمع وخصائصه لذلك استخدمها المسرح لكي يدافع عن الهوية الوطنية ويلجأ إليها كونها هي اللغة المحلية إذ نجد المسرح العربي عامة والجزائري بصفة خاصة يستعمل اللغة العربية واللهجات العامية، فالمسرح الجزائري عُرف باعتماده على اللغة العربية الفصحى أو اللهجات العامية الجزائرية كاللهجة الوهرانية مثلا، حيث أن اللغة العربية هي خير دليل يثبت هوية المجتمع الجزائري على أنه مجتمع له نسبه وعروبته كما أنها تبرز ديانته وهي الديانة الإسلامية التي جاءت بلسان عربي زد إلى ذلك اللهجات العامية التي تميز الجزائر عن باقي الدول العربية الأخرى، كما أنها أقوى وسيلة لمخاطبة الجمهور من وجدانه و لها قدرة كبيرة في إيصال المعاني والأفكار التي تتعلق بهوية الشعب الجزائري، هذه الهوية التي تلعب اللغة العربية الفصحى والعامية دورا كبيرا في إبرازها وتحصينها من الغزو الفكري الغربي والاغتراب الذاتي وما ينجم عنه من أضرار تسبب فيها الغرب بغية تشتيت هذه الهوية والقضاء عليها. 5

زد إلى ذلك وظيفتها الاجتماعية والسياسية والثقافية لذلك اتجه كتاب المسرح الى الكتابة بالفصحى والعامية بغية إنشاء مسرح جزائري له خصوصياته ولغته الخاصة التي تميزه عن المسارح الأخرى، فكان هذا الاتجاه في الكتابة باللغة العربية للمسرح يدخل ضمن الاهتمامات الكبيرة التي عُني بها الدارسون للفن المسرحي "إن التأليف باللغة العربية الفصحى سلكه رجال الإصلاح والمربون وكل الذين اتخذوا المسرح وسيلة للتثقيف وتربية النشء وهذا الاتجاه هدفه الإصلاح الاجتماعي والتوعية وإيقاظ الشعور الوطني" 6

وإذا كان الإصلاح يهدف إلى إبراز هوية المجتمع والدفاع عن مقوماتها فيمكن أن نستنتج أن اللغة هي أداة لتحصينها وإبرازها وهي إحدى الصور التي تظهرها وتميز الجزائر عن باقي الدول والشعوب.

إنّ التأليف بالعامية الذي هو الأقوى في كثير من الأحيان كونه الصورة الحقيقية للهجة الجزائرية على اعتبار أن اللغة العربية هي لغة العرب كلهم، أما العامية الجزائرية فقد تبناها الكتاب أيضا في كتاباتهم لما لها من أثر فعال في إيصال الأفكار ومحاكاة المجتمع الجزائري بمختلف أفراده بكل ما تعرضه من حقائق ومشاهدات عن الواقع الجزائري والتعبير عنه بكل صدق وأمانة وكذلك تلك الأفكار الداعية إلى الحفاظ على الوطن والسعي لخدمة مصالحه والتشبث بالدين الإسلامي زد إلى ذلك أهمية العامية الجزائرية التي هي وسيلة شعبية يتعامل بها سائر الجزائريين لذلك كان لابد للكتاب أن يتبنوها لكي تكون هي الوسيلة لإبراز الهوية الوطنية والدفاع عن القومية والخصوصية التي يتحلى بها الشعب الجزائري. 7

فكانت هذه اللغة في المسرح الجزائري محمّلة بالكثير من الأمثال والحكم والأغاني الشعبية والشعر الملحون ... وغيرها من الموروثات التي تعبر عن مجتمع جزائري له خصوصياته ومآثره وطموحاته التي تميزه عن غيره، هذه اللغة المحملة بالأمثال والحكم الشعبية كانت أفضل لغة للدلالة على الشعبية الجزائرية الأصيلة وإعطاء التجربة والحنكة وبعد النظر إذ لا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق كاتب ومبدع مسرحي له علاقة وطيدة بالفن المسرحي من جهة وبالشعب والوطن الجزائري ومختلف موروثاته الثقافية والدينية والفكرية من جهة أخرى الأمر الذي يجعله يمزج بين التراث الشعبي

واللغة العامية والفصحى بغية إخراج لغة ثالثة هي لغة الأصالة ولغة الشعب الجزائري، إذ لا يمكن القول أن هذا العمل في مجال المسرح الجزائري يعتبر إثباتا لهوية المجتمع الجزائري.

2.3 بعض الكتاب الذي وظفوا اللغة واللهجات المحلية دفاعا عن الهوية:

كانت اللغة في المسرح الجزائري وسيلة ناجحة في إيصال الأفكار إلى الأوساط الجماهيرية لذلك اعتمد عليها الكتاب أمثال محمد التوري، وولد عبد الرحمان كاكي، وعبد القادر علولة، ورويشد ... وغيرهم من المبدعين الذين أخذتهم الغيرة على وطنهم وعروبتهم ودينهم الإسلامي الحنيف فحاولوا دوما التغني بهذه المقومات المذكورة آنفا كونها ترتبط بوجدانهم ووجدان جمهورهم وشعبهم الذي هو شعب عربي جزائري مسلم له أصالته ومآثره وخصوصياته التي يفتخر بها ويتميز بها عن باقي الشعوب. 8

مثلا رويشد الذي اعتمد على لغة شعبية جماهيرية في مختلف إبداعات هذه اللغة الذي حمّلها رموزا للكشف عن شخصيته في مختلف أعماله وكتاباته في المسرح الجزائري.

وفي مسرحية (الغولة) التي اعتمد فيها على اللهجة الجزائرية العاصمية التي أبرزت حقيقة الشخصيات والبيئة والواقع الاجتماعي وحتى الفكر والعقائد ... وحتى العلاقة بين تلك الشخصيات فكانت مفرداتها خير مثال على الهوية الوطنية والجزائرية إلى درجة أنه من يسمعها يحس أنه بالجزائر عامة وبالعاصمة بصفة خاصة مثل (إيه) ، (لا تصرخ) ، (كل) ، (انعم) ... وغيرها من المفردات التي كانت في نص مسرحية الغولة بالإضافة إلى بعض الأمثال الشعبية الأصيلة – مثل (طاق على من

طاق) و (داوود عمرو لا يعاود) و (اخرج لربي عريان يكسيك) ... وغيرها من الأمثال المتداولة بين أفراد المجتمع الجزائري. 9

كان هذا مثال عن اللغة في المسرح الجزائري هذه اللغة التي عملت عملا كبيرا في إبراز الهوية والدفاع عن الذات من الاغتراب والهيمنة الغربية والوقوف في وجه الغزو الفكري والثقافي الغربي، وكل ذلك عن طريق توظيفها في مجال الأدب عامة والمسرح الجزائري بصفة خاصة فكان هذا من بين الاتجاهات التي سار عليها العديد من المبدعين والكتاب الجزائريين بغية إثبات الذات والأصالة وهوية الشعب والمجتمع الجزائري بشكل عام.

فعلى سبيل المثال نجد ولد عبد الرحمان كاكي الذي اعتمد في مسرحه على اللغة كأسلوب خطابي يوحي بالجمال بشكل يجعل حواراتها معبرة ومؤثرة في المتلقي من جهة ويلعب دورا هاما في إبراز الهوية الوطنية ومن جهة أخرى خير مثال على ذلك نجد مسرحية (كل واحد وحكمو) التي اعتمدت أسلوبا لغويا مستوحى من التراث، ففي أحد مشاهد المسرحية مثلا وهو مشهد البخار الذي يتحدث عن الشاب سعدي الولهان واليائس في مقطع يبدي قوة لغة كاكي في معانيها و ورمزيتها

البخار: ربي يتوب وانت تعيا واتوب

اشتا درت أنت ما داروا الناس من العيوب

شحال من عبد عايش من الذنوب

(..... جربت كل ما اثبت حتى فريق الحروب.....).

وغيرها من الأمثال والحكم والمعاني التي جاءت على لسان البخار حيث اعتبرها كاكي وجعلها توحي بأفكار ومعاني وتجارب شعبية بغية إعطاء أبعاد رمزية وأسطورية لماضي الأمة الجزائرية وتراثها الغني الزاخر. 10

وهناك مسرحيات أخرى أبرزت الجانب الديني الإسلامي الذي هو الجزء الأساسي والمقوم الرسمي لإبراز هوية المجتمع الجزائري مجتمعا عربيا مسلما فمثلا مسرحية المولد لعبد الرحمان الجيلالي وإن كان بناؤها الفني لم يبلغ المستوى الفني الرفيع فإنها جاءت في فترة كان الشعب يعاني قهر المستعمر الفرنسي وقد كتب هذه المسرحية عقب أحداث 08 ماي 1945 كربط بين الأحداث في الجزائر ومولد النبي صلى الله عليه وسلم وكرمز للجهاد والصبر والثورة ويبقى الهدف الرئيسي هو الحفاظ على الهوية الوطنية للمجتمع الجزائري وحماية أفراده من الاغتراب علما أن المسرحية كانت تهدف إلى الوقوف في وجه المستعمر الذي حاول طمس الديانة الإسلامية والشخصية الجزائرية، وهناك مسرحية الهجرة لعبد الرحمان الجيلالي التي لعبت دورا هاما في إبراز قيمة الدين الإسلامي ومكانته في المجتمع الجزائري إذ اعتمدت أسلوبا خطابيا معبرا ومبرزا للديانة الإسلامية التي هي ديانة الشعب الجزائري حيث كانت حواراتها مدعمة بآيات من القرآن الكريم والشعر العربي وأقوال الصحابة وحتى كبار قريش في الجاهلية فمثلا نجد أبا الحكم يقول: أحدثكم إن محمدا كان من أمره ما علمتم وقد أسلم عمر بن الخطاب فهو رجل عظيم من قريش .....فواللات والعزى لقد خشي من نهضة عارمة من قِبَله تكون علينا قتالا فتأتي على الأخضر واليابس فأجمعوا في رأي ...

إلخ وهذا الحوار يجسد حادثة معروفة في قضية الإسلام ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم كما دعم النص المسرحي بآيات قرآنية مثل:

البراءة: اسمع مرتلا { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم}. 11

إن هذه العبارات والآيات والحوارات التي جاءت في هذه المسرحية كانت خير دليل على أن الجزائر بلد مسلم وهذا ما حاول الكاتب إبرازه.

3.3 تمجيد البطولات والدفاع عن التراث اللغوي والهوية الوطنية:

إن الباحث في تاريخ الجزائر منذ الدولة العثمانية مرورا بالاحتلال الفرنسي انطلاقا من عام 1830وحتى الثورة التحريرية المجيدة والاستقلال عام 1962 سيصل إلى نتيجة مفادها أن الجزائر بلد عريق وقديم النشأة حتى قبل الاحتلال وقد مر هذا البلد بفترات زمنية عرف فيها العديد من الثورات والبطولات والملاحم، تلك المآثر التي حاكها التاريخ ورواها الباحثون والمؤرخون في كل زمان ومكان حيث أنجبت شخصيات كانت رمزا للفداء والشهامة والبطولة عرفها التاريخ عبر مختلف المراحل والفترات الزمنية التي عرفتها الجزائر مثل الأمير عبد القادر والشيخ بوعمامة والمقراني والحداد وغيرهم فإن الثورة التحريرية المجيدة التي مات خلالها مليون ونصف المليون من الشهداء وما تركه هؤلاء الشهداء الأبرار من عبر عن حب الوطن وفدائه والبطولات التي قاموا بها في سبيل الوطن والحرية، فإن هذا التاريخ المجيد للجزائر يعتبر جزءا أساسيا من كيان الشعب الجزائري بل هو بالأخص صورة خالدة عن هوية هذا الوطن وشعبه، هذا

الوطن الذي كان قائما منذ زمن بعيدعلى تطورات وبطولات تعكس هوية هذا المجتمع وأفراده وشخصياته.12

ومنه تفطن الباحثون والمبدعون في مجال المسرح لما في تاريخ الجزائر من مآثر وبطولات يمكن أن تملاّ نصوصهم بالمعطيات والدلالات التعبيرية وتزيد في أعمالهم قوة في الجمالية فعملوا على محاكاتها في نصوصهم فكان المسرح الجزائري شأنه شأن المسرح في الوطن العربي، هذا المسرح الذي حاكى بطولات الأمة العربية وما تركته من سير وملاحم مثل الظاهر بيبرس وعنترة وغيرهما.

فالمسرح الجزائري يسعى دوما إلى التغني ببطولات الشعب الجزائري التي خاضها طوال قرن ونصف من الزمن، هذه المدة التي تبرز فيها هوية الجزائر كشعب له مآثره ودولة لها تاريخها الحضاري والفكري والثوري ومنه باتت العديد من الأعمال المسرحية تهدف دوما إلى تذكير الجمهور والشعب الجزائري بمآثره وملاحمه الخالدة التي كانت سببا في نشأة دولة جزائرية مستقلة تنعم بالحرية والكرامة.13

كانت هذه المادة التراثية الخزان الكبير الذي اعتمد عليها المسرحيون الجزائريون في كتابة أعمالهم المسرحية، بغية التأصيل لمسرح جزائري خاص، يزخر بكل أنواع التراث من أجل المحافظة على هوية المجتمع الجزائري موظفين اللغة العربية الفصحى واللهجات المحلية في كتابة أعمالهم المسرحية، وحتى في مسرحياتهم الممثلة على خشبة المسرح، من أجل ايصال الرسالة للمشاهد وللمواطن الذي كان لا يتقن اللغة الفرنسية، من جهة ومن جهة أخرى للحفاظ على اللغة واللهجات الوطنية والتشهير بها

حتى لا تندثر، فكان المسرح يسعى إلى نشر الوعي الثوري والمحافظة على التراث اللغوي، وعلى الهوية الوطنية من الاغتراب .

4. خاتمة:

إن المسرح الجزائري يسعى دوما إلى تبيان هويته وهوية هذا البلد الذي له خصوصياته وتراثه وملاحمه وتاريخه المجيد بشكل يجعله يتمتع بالأصالة، فالمسرح هنا نجده يلعب دورا هاما في إبراز هذه الهوية بفضل اللغة العربية واللهجات الجزائرية واستخدام الخطاب الإيديولوجي سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا وهذه الوسيلة تعتبر بالنسبة للكثيرين خير أداة لإيصال هذه الأنواع من الأفكار إلى ذهن الجمهور والتأثير فيه عن طريق التراث الشعبي و تذكيره بتاريخه وبطولاته عن طريق الحكايات الشعبية و عن طريق اللغة العربية الفصحى والعامية التي تعتبر جزء لا يتجزأ من كيان الشعب العربي عامة والجزائري بصفة خاصة، وعن طريق الحكايات الشعبية التي هي راسخة في الذات، والتي ورثها المجتمع الجزائري عن أسلافه ووظفها في الدفاع عن هويته و المحافظة عليها من الطمس والتغريب، فنجد توظف التراث الشعبي في المسرح الجزائري بقوة والذي كان بمثابة المرآة العاكسة للهوية الوطنية الجزائرية.

5. قائمة المراجع:

. **1**- ينظر، عبد القادر بوشيبة، الظواهر اللاأرسطية في المسرح العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه، قسم النقد والأدب التمثيلي، جامعة وهران، 2002-2003، ص301

2-السيد حافظ الأسود، التراث الشفاهي ودراسة الشخصية القومية، م.عالم الفكر و الثقافة، ع1، الكويت،1985، ص275

3- صالح لمباركية، المسرح في الجزائر، دراسات موضوعاتية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط2، 2005، ص161

4- ينظر، لصالح مباركية، المسرح في الجزائر، م س،ص102

5- جاسم السعيدي، الأبعاد التاريخية والثقافية في الأزمة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، ط1، 2007، دار الهدى، ص89

6- صالح لمباركية، المسرح في الجزائر، م س، ص153

7- ينظر، لصالح مباركية، المسرح في الجزائر، م س، ص153

8- ينظر، لصالح مباركية، المسرح في الجزائر، م س، ص155

9- د محمد سليم قلالة، الاختراق في الثقافة الجزائرية، النشر اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1 ، 2003، ص183

10- ينظر، صالح لمباركية ، المسرح في الجزائر، م س، ص 153-154

11- ينظر، صالح لمباركية، المسرح في الجزائر، م س، ص162

12- **ينظر**، أحمد مندور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية- ط4، 2008، ص21

13- ينظر، محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، 1847-1914، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1967، ص293